أ فريد تابتي

العصر الجاهلي
تاريخيا وجغرفيا

مقدمة:

يظل الحديث عن الشعر الجاهلي محفوفا بكثير من التساؤلات، بالرغم من أنه قدم للحضارة الإنسانية نصوصا قامت - بالإضافة إلى وظيفتها الفنية الجمالية - بوظيفة تاريخية؛ فما كنا لنعرف عن الجاهليين شيئا لولاها.

إن الدراسات النقدية التي تناولت الشعر الجاهلي قد فتحت للقارئ مجالات تأويلية عدة، تعددت بتعدد الدارسين، واختلفت باختلاف وجهات نظرهم، اعتمد بعضهم على النص مفسرا لغته، وباحثا من خلال مفرداته وصوره عما يستطيع به تأكيد فرضياته، وخرج بعضهم عن مساحة النص ليبحث خارجه. ولعل من أهم الصفات التي ارتبطت بالشعر الجاهلي هي صفة الشفوية على اعتبار أن الرواية هي الأداة التي استمر بها هذا الشعر في الزمان، وتشعب بها في المكان، وهي التي مكنت القارئ في العصور اللاحقة من الاطلاع على ما أبدعه الجاهليون، بالرغم من أنها كانت السبب في ضياع جزء كبير منه كما يرى كثير من الدارسين، وقد يكون صدفة طيبة أن يرتبط هذا الشعر بالشفوية والرواية، على اعتبار أن القول الشعري (لا يقوم في المعبر عنه، بل في طريقة التعبير، خصوصاً أن الشاعر الجاهلي كان يقول – إجمالاً - ما يعرفه السامع مسبقاً؛ كان يقول عاداته وتقاليده، حروبه ومآثره، انتصاراته وانهزاماته، وفي هذا ما يوضح كيف أن قراءة الشاعر لم تكن فيما يفصح عنه، بل في طريقة إفصاحه)[1]، بمعنى أن المطلوب من الشاعر آنذاك هو أن يقول ما يعرفه القارئ بطريقة مبتكرة لا يعرفها هذا القارئ، مما يجعل مجال التنافس بين الشعراء هو كيفية القول، أي الإبداع، وعلى هذا الأساس كان لامرئ القيس عند الجاهليين مكانة لم يبلغها سواه، (إن التجديد المقبول هو ما يكون تعبيراً عن الذوق العام ورغبة المجتمع، ولذلك فامرؤ القيس قد سبق الشعراء، ولكنه ما قال ما لم يقولوا، لأن العرب استحسنته، واتبعته فيه الشعراء. وقدم هذا المبتكر بطريقة مرغوبة عند العرب، تتمثل في ألفاظ قريبة المأخذ، وفي قالب تصويري واضح العلاقات هو التشبيه، وهذا التقديم يحقق طريقة العرب أو عمود الشعر)[2].

عن مصطلح الجاهليّة:

إن تحديد الفترة الزّمنيّة التي يقصدها المؤرّخون بكلمة (جاهليّة) لَمِنَ الصّعوبة بمكان، والسّبب واضحٌ بَيّنٌ، يتمثّل في غياب التّدوين التّاريخيّ، ممّا فتح المجال واسعا أمام الدّارسين

[1] - أدونيس، الشعرية العربية، ص: 6.

[2] - رجاء عيد: بواكير المصطلحات النقدية. قراءة في كتاب طبقات فحول الشعراء. م. فصول م. السادس ع. الثاني ص119.

لمحاولة تحديدها، وتحديد خصوصيّاتها، فمنهم من يرى أنّه تُطلق كلمة "الجاهليّ (على أحوال العرب قبل الإسلام لتفشّي الوثنيّة والعداوات، وقد تطرّق القرآن الكريم لكلمة " الجاهليّة" في قوله: ﴿أَفَحُكْمَ الجاهليّة يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ من الله حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[3]، المراد هنا هو الجهل التّوحيديّ الدّينيّ لا الجهل بعلم من العلوم، والله أعلم)[4]، وبذلك يكون معنى الجاهليّة هنا المعنى المضادّ للتّوحيد (الدّينيّ)، ولا علاقة له بالجهل المضادّ للعلم، فقد كان الجاهليّون وثنيّين في أغلبهم، يعبدون الأصنام، يؤمنون بها ويقدّمون لها الذّبائح... وبذلك أشركوا مع الله (آلهة) أخرى لا تعقل، ومع ذلك فقد ثبت أنّهم كانوا يكتبون. وهناك تفسير آخر لكمة (الجاهليّة)، مختلف عن هذا التّفسير؛ فقد (ذكرت دائرة المعارف والكتب الأخرى بأنّ اليهوديّة أطلقت كلمة الجاهليّين على الأقوام الذين سبقوا ظهورها. كما وأنّ النّصارى أطلقوا هذا المعنى أيضا، إضافة إلى أنّ بعض المستشرقين يحدّدون فترة الجاهليّة بقولهم: "تُطلق كلمة الجاهليّة على الفترة التي خلت من الرّسل، أي بين الرّسولين العظيمين السّيّد المسيح والرّسول الأعظم ﷺ")[5]، ومعنى هذا أنّ كلمة (الجاهليّة) لم تَشِعْ فقط عند المسلمين بمعناها المناقض للإسلام، وإنّما هي كلمة شائعة أيضا عند اليهود والنّصارى الذين يطلقونها على الأقوام الذين سبقوا ظهورهما، وهي مناقضة لتعاليمهما، وفي المقابل هناك من يحدّدها تحديدا دقيقا، في الفترة التّاريخيّة الممتدّة بين المسيح ﷺ، والرّسول محمّد ﷺ.

وهناك آراء كثيرة في الموضوع، ومع اختلافها على العموم، فإنّها تتشابه من حيث المغزى العامّ؛ فقد (ذهب المفسّرون إلى أنّ المراد من الجاهليّة في قوله تعالى: ﴿وقرن في بيوتكنّ ولا تبرّجن تبرّج الجاهليّة الأولى﴾ أنّ الجاهليّة كانت فيما بين نوح وإدريس، وقيل كانت المرأة فيها تلبس الدّرع من اللّؤلؤ غير مخيط الجانبين، وتلبس الثّياب الرّقاق ولا تواري بدنها؛ ورُوي عن الحكم بن عُيينة أنّ الجاهليّة كانت بين آدم ونوح، وهي ثمانمائة سنة؛ وقال الكلبيّ: إنّما يُراد بها عصر ما بين نوح وإبراهيم، وقيل إنّها عبارة عن أيّام الفترة ما بين موسى وعيسى عليهما السّلام، وما بين عيسى ومحمّد ﷺ؛ ورُوي عن ابن خالويه أنّ هذا اللّفظ أُطلق في الإسلام على الزّمن الذي كان قبل البعثة؛ ويرى الألوسيّ في بلوغ الأرب أنّها الزّمان الذي كثر فيه الجهّال. فهذه الأقوال كلّها تدلّ على أنّها تُطلق على زمن الكفر مطلقا كما قال أصحاب محمّد ﷺ: كلّ من عمل السّوء فهو جاهل، ويؤيّده قول النّبيّ ﷺ لأبي ذرّ: "إنّك امرؤ فيك جاهليّة"، وهذا يؤيّد قول المستشرق جولدزيهر (Goldziher) الذي أثبت أخيرا أنّ الجهل ضدّ الحلم لا ضدّ العلم،

---

[3] - سورة المائدة، الآية: 50.

[4] - علاء حسين الكاتب: مراحل الأدب العربيّ دراسة تاريخيّة، نشر مهدي يار، ط 1، 2001، ص: 19، 20.

[5] - علاء حسين الكاتب: مراحل الأدب العربيّ دراسة تاريخيّة، ص: 19، 20.

فالشّعراء الجاهليّون كانوا يريدون بالجهل التّوحّش لا عدم المعرفة، وكذلك المسلمون إذا ذكروا الجاهليّة أرادوا بها العادات الوثنيّة)[6]، وهكذا، فزمن الجاهليّة هو الزّمن الخالي من الرّسل، ونهايته مقرون ببعثة نبيّ أو رسول، مثلما حدث لجاهليّة العرب، التي انتهت ببعثة الرّسول ﷺ، أمّا عن معناها، فلا يخرج عن المعنى الدّينيّ، الذي يدور حول الضّلال، والحياد عن الطّريق المستقيم، وفي المقابل فهي لا تعني أبدا الجهل المقابل للعلم، وبذلك لازمت الجاهليّة البشر منذ وجودهم، وكلّما استفحلت أرسل الله نبيّا أو رسولا ليضع لها حدّا إلى حين. لهذا يصعب أنْ (نحدّ د الجاهليّة كعصر معيّن من عصور التّاريخ المعيّنة، لأنّها ليست زمنا متّصلا بعضه ببعض، بل هي فترات متقطّعة تقع حينا بعد حين، وكلّ فترة منها تكوّن طائفة وثنيّة لها شعائرها ولها خصائص عباداتها التي تعبّر عن شعور الأمّة حسب داوعي البيئة)[7]. هذا عن (الجاهليّة)، أمّا عن الشّعر الجاهليّ، المنسوب إلى جاهليّة العرب، فقد كان عاملا رئيسيّا في تحديد هذه الجاهليّة، بناء على نصوصه، وإذا كانت بداياته الأولى – التي هي بدايات هذا العصر عند العرب – مجهولة، لعدم وصول نصوصه المتنقّلة شفويّا عبر التّاريخ، فقد عرفنا على الأقلّ، وبالتّقريب، فترة من الجاهليّة عايشتها مجموعةٌ من النّصوص هي الآن بين أيدينا، وفي ذلك يقول الجاحظ: (أما الشعر العربي فحديث الميلاد صغير السن، أوّل من نهج سبيله وسهّل الطريق إليه امرؤ القيس بن حُجْر، ومهلهل بن ربيعة... فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له – إلى أنْ جاء الله بالإسلام – خمسين ومائة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام)[8]. ويعتبر المؤرّخون (الجاهليّة) جاهليّتين؛ أولاهما نجهل عنها كلّ شيء، لأنّه لم يصل إلينا منها شيءٌ، وثانيتهما هي التي سبقت الإسلام بحواليْ قرنين على أكثر تقدير، وقد وصل إلينا منها بعض الشّعر، وارتبطت بـ(السّفاهة التي كانت مؤدّية إلى الهمجيّة وانتشار الضّلالة وعبادة الأوثان، والإسراف في القتل واستباحة الزّنا والخمر، وانتهاء ذلك كلّه بتأريث العداوة وقيام الحروب وتفرّق القبائل)[9].

تقسيم العصور الأدبية:

نوضّح هنا أنّ التّركيز على دراسة العصور الأدبيّة إنّما هو من أجل غاية منهجيّة فقط، نهدف منها إلى محاولة فهم أدب كلّ عصر على ضوء أحداثه، إذ لا يمكن فهم الأدب خارج الزّمان والمكان اللّذين أوجداه. وما دام الزّمان والمكان هما المتحكّمان في ظروف السّياسة والمجتمع

---

[6] - محمّد عبد المعيد خان: الأساطير العربيّة قبل الإسلام، مطبعة لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر، القاهرة، 1937، ص: 02، 03.

[7] - محمّد عبد المعيد خان: الأساطير العربيّة قبل الإسلام، ص: 03.

[8] - الجاحظ: الحيوان، طبعة الحلبي، ج 1، ص: 74.

[9] - محمّد هاشم عطيّة: الأدب العربيّ وتاريخه في العصر الجاهليّ، مطبعة مصطفى الحلبيّ وأولاده، ط 2، مصر، 1936، ص: 06.

والإنسان والإبداع، فعلينا دراسة هذه القضايا كلّها في ظلّ الزّمان والمكان المنتجيْن لها، ولذلك، فعندما نذكر العصر (الجاهليّ) فبإمكاننا أن نتصوّر أحداث العصر، وطرق التّفكير، وطريقة المعيشة، والمتقدات... التي ستكون مختلفة كلّيّا عمّا نتصوّره عندما نذكر العصر (الإسلاميّ). وعندما ذكر التّاريخ ما يُعرف بـ(عام الرّمادة)، فلأنّه بأحداثه أصبح يمثّل عصرا بدأ التّأريخ به، فقيل: (عام الرّمادة)، وهو يحيل على سنة 18 هـ، والجفاف والمجاعة اللّذين وقعا فيها، ويمكننا أن نتصوّر حالة النّاس والسّياسة والإبداع في ظلّ مرحلة من التّاريخ لم يجد النّاس ما يأكلونه، حتّى عطّل عمر بن الخطّاب ض عنه الحكم بقطع يد السّارق.

تحديد العصور الأدبيّة إذن خطوة منهجيّة لدراسة تاريخ الأدب، في ظلّ الظّروف التي أنتجته، ولكنّ هذا التّحديد هو تحديد نسبيّ يختلف من مؤرّخ إلى آخر، بناء على الموقف الشّخصيّ لهذا المؤرّخ أو ذاك من الأحداث الكبرى، التي يجب التّأريخ بها،ولكنّ (الحقّ أنّ عصور الأدب يتدخّل بعضها في بعض فتظلّ طوابع عصر بادية على أعراض اللّغة في أوائل العصر الذي يليه حتّى لقد ترى الآداب زاهرة، واللّغة راقية في عصر تنحدر فيه الأحوال السّياسيّة والاجتماعيّة إلى التّأخّر، وإنّما كان الذي بقي في اللّغة من الحياة نتيجة لعصر سياسيّ قويّ سبق ذلك الانحطاط، إذ ليس الأدب عرْضا من عروض التّجارة، وليست اللّغة كائنا من الجمادات يمكن أن يأتي عليها الفناء جملة، أو تؤثّر فيهما الحوادث والانقلابات دفعة واحدة)[10]، ومعنى هذا القول أنّ هذا التّقسيم هو فعلا عمل منهجيّ تقريبيّ، الغاية منه هو محاولة الفهم، ولا يمكن له أبدا أن يكون تقسيما دقيقا صارما، لأنّنا نتعامل فيه مع أنتاج أدبيّ ولغويّ قد لا يخضع للتّقسيم المقترح، لأنّ الأدب واللّغة بطبيعتهما نشاط إنسانيّ يتطور ببطء، ويتغير مع تغيّر الإنسان والظّروف في الزّمان، ولذلك فقد يحدث طارئ على السّياسة والاقتصاد والمجتمع ويظل الأدب مستمرّا على شكله ومحتواه الذي سبق ذلك الطّارئ، إلى حين. التّداخل بين العصور في موضوع الأدب أمر وارد إذن، وهو أمر طبيعيّ، ما دام الأدب لغةً للذّات، تتأثّر على هواها، ولذلك فـ(إنّ ذلك العصر الجاهليّ أو تلك اللّغة الجاهليّة بقيت فترة غير قصيرة كما كانت قبيل الإسلام تعيش بين مناظر البرّيّة وآفاق الصّحراء، وتحكي آثار النّزاع والافتخار بالعصبيّة، والمباهاة بالأحساب والأنساب إلى أنْ طوى الإسلام ذلك البساط بما عليه من التّناحر، وسفك الدّماء، وجعل النّاس ينامون في حراسة السّلام إخوانا في دين الله)[11]؛ هذا دليل يجعل من تقسيم التّاريخ إلى عصور أدبيّة أمرا غير دقيق وغير صارم، رغم ضرورته لكلّ دارس.

هذا بشكل عامّ عن العصور الأدبيّة، ولكن ما المقصود بها؟ (المقصود بعصور تاريخ الأدب هذه المسافات الزّمنيّة التي تجمع إلى الآداب ما له بها ارتباط قويّ من النّظم الاجتماعيّة،

[10] - محمّد هاشم عطيّة: الأدب العربيّ وتاريخه في العصر الجاهليّ، ص: 06.

[11] - محمّد هاشم عطيّة: الأدب العربيّ وتاريخه في العصر الجاهليّ، ص: 07.

والحالات السّياسيّة والدّينيّة التي لها شأنها في تصوير الأدب بصورة العصر الذي ينشأ فيه، ويتبع ذلك الكلام على العلوم كلّها معا في كلّ عصر على حدة، وهذا هو الذي اتّبعه من تصدّروا للتّأليف في هذا العلم، فهم قد قسّموه إلى قمسين كبيرين يفصل بينهما أهمّ انقلاب تاريخيّ أصاب العرب في حياتهم كلّها، وهو ظهور الإسلام، فهذا الاعتبار يقسّم التّاريخ الأدبيّ إلى عصرين: أحدهما قبل الإسلام، والآخر بعده، ولكلّ منهما أقسام تابعة له، فما قبل الإسلام ينقسم إلى عصرين: عصر الجاهليّة الأولى، وعصر الجاهليّة الثّانية، وما بعده ينقسم إلى عصر صدر الإسلام، ويشمل العهد الأمويّ من ولاية معاوية سنة 41هـ إلى سنة 131هـ، ثمّ العصر العبّاسيّ من سنة 132هـ إلى سقوط بغداد سنة 656هـ، ثمّ عصر الدّول المتتابعة حتّى زمن محمّد عليّ باشا سنة 1220هـ، ثمّ عصر النّهضة الحديثة من زمن محمّد عليّ إلى وقتنا هذا)[12]. وبذلك، فالأمر الذي وضع حدّا للتّاريخ الجاهليّ فأوقفه هو نزول الإسلام، الذي كان بداية لحياة جديدة مختلفة جذريّا عن التي سبقتها، في الأمور الهامّة التي تصنع الإنسان؛ في العقيدة والمجتمع والسّياسة والاقتصاد... وبعده جاءت أحداث أخرى في ظلّه، ولكنّها حملت من التّغير ما أهّلها ليشكّل كلّ حدث منها عصرا مستقلاً، وبناء على هذا كلّه، فالرّأي السّابق يقترح تقسيما للعصور الأدبيّة العربيّة، منذ الجاهليّة إلى اليوم. وهناك رأي آخر يقول: (تاريخ الأدب العربيّ قديم جدّا، ولكنّ أقدم ما وصل إلينا من نصوص الأدب العربيّ لا يزيد عمره على ألفٍ وستّمائةِ سنةٍ. هذه المدّة مقسومة، في تاريخ الأدب، ثلاثَ حقبٍ هي:

أ - الأدب القديم من أقدم العصور الجاهليّة إلى آخر العصر الأمويّ (نحو 300 سنة).

ب - الأدب المحدث من سقوط الدّولة الأمويّة وقيام الدّولة العبّاسيّة، سنة 123هـ (750م)، إلى مطلع القرن التّاسع عشر للميلاد.

ج - الأدب الحديث من مطلع القرن التّاسع عشر إلى اليوم)[13]، وهذا التّقسيم بدوره قد اعتمد على الأحداث الكبرى التي ميّزت العصور المذكورة، إلاّ أنّه تقسيم عامٌّ جدًّا، ولا يمكنه بعموميّته تلك أن يساعد الدّارس على الوصول إلى خصوصيّات كلّ عصر بسبب التّداخلات الموجودة بينها، ممّا جعل صاحب هذا الرّأي يستدرك الأمر، ويخرج من العموميّة إلى التّخصيص، فيحاول أن يكون أكثر دقّة، ولذلك اقترح التّقسيم التّالي: (وبما أنّ هذه الحقب طويلة جدّا، فقد قسّمها مؤرّخو الأدب العربيّ أعصرا قصيرة توافق الأعصر السّياسيّة في تاريخ الإسلام وهي:

---

[12] - محمّد هاشم عطيّة: الأدب العربيّ وتاريخه في العصر الجاهليّ، ص: 20، 21.

[13] - عمر فرّوخ، تاريخ الأدب العربيّ، الجزء الأوّل الأدب القديم، من مطلع الجاهليّة إلى سقوط الدّولة الأمويّة، دار العلم للملايين، ط 4، بيروت، 1981، ص: 58، ويُنظر كذلك في الموضوع:

شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، دار المعارف، ط 22، ص: 14.

كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، دار المعارف، جزء 1، ط 5، ص: 37، 38.

1 - العصر الجاهليّ، قبل الإسلام.

2 - عصر المخضرمين، أو صدر الإسلام الأوّل: من ظهور الإسلام إلى آخر 0دولة الخلفاء الرّاشدين وقيام الدّولة الأمويّة (40هـ، 660م).

3 - العصر الأمويّ.

4 - العصر العبّاسيّ: الحقبة الأولى: حقبة بغداد.

الحقبة الثّانية: حقبة الدّولات.

الحقبة الثّالثة: الحقبة السّلجوقيّة.

5 - العصر الأندلسيّ (المتأخّر).

6 - العصر المغوليّ.

7 - العصر العثمانيّ.

8 - العصر الحديث: أدب النّهضة العربيّة (1800 – 1875م)، الأدب المعاصر)[14].

ليست الأحداث التي ندرسها في تاريخ الأدب - على اختلافها – سوى طريق لدراسة الأدب، وذلك دليل على أن هذا النّتاج الفنّيّ الجميل الذي ندعوه أدبا، لا يمكننا فهمه، ودخول عوالمه، ما لم نحطْ علما بكثير من المعارف والعلوم، لأنّ الأدب ليس كائنا مجرّدا مفصولا عن صاحبه، خارجا عن الزّمان والمكان، إنّه صورة لصاحبه الذي ليس سوى نتاج شكّلته ظروف التّاريخ المتحرّك والمتغيّر في المكان.

الدّين والمعتقد:

المعروف عن العرب في الجاهليّة أنّهم كانوا يدينون بالوثنيّة، والوثنيّة هي عبادة الأصنام، وكانت تسمية القرآن لهم بالمشركين دلالة على إيمانهم بالله ولكنّهم يتّخذون الأصنام واسطة بينهم وبينه، وبذلك جعلوا لله شركاء في ألوهيّته، فـ(كانت الوثنيّة في القبائل أعمّ وأكثر انتشارا، والأصنام منصوبة في كلّ ناحية من نواحي الجزيرة، ولا سيّما الكعبة، وتزعم الرّواية العربيّة أنّ أوّل من دعا العرب إلى عبادة الأصنام عمرو بن لحيّ، وكانوا على بقيّة من دين إسماعيل، فأفسد عقائدهم)[15]، ومع مرور الأيّام أصبح للعرب آلهة من الأصنام ذات تأثير عظيم على حياتهم، فكانت (الطّواغيت الكبار ثلاثة: اللاّت والعزّى ومناة. وكلّ واحد منها لِمَصْرٍ من أمصار العرب، فاللاّت لأهل الطّائف، والعزّى لأهل مكّة، ومناة لأهل المدينة. وكانت العرب تعظّم هذه الرّبّات، وتقصدها من كلّ صوب، وتجعل لها السّدنة كما تجعلهم للبيت الحرام)[16]. وجود هذه الأصنام

---

[14] - عمر فرّوخ، تاريخ الأدب العربيّ، الجزء الأوّل الأدب القديم، من مطلع الجاهليّة إلى سقوط الدّولة الأمويّة، ص: 58.

[15] - بطرس البستانيّ: أدباء العرب في الجاهليّة وصدر الإسلام، ص: 27.

[16] - بطرس البستانيّ: أدباء العرب في الجاهليّة وصدر الإسلام، ص: 27، 28.

إذن، يدلّ على الإيمان بالله ربّا خالقا، ولكنّهم لم يعبدوه مباشرة، وإنّما تقرّبوا منه عن طريق وسائط لا تشعر ولا تعقل، وهذا فعل يكشف عن تفكيرهم الذي جانب العقل والصّواب، فكانوا (يعتقدون أنّ لله ثلاث بنات: اللاّت ومناة والعُزّى، وأنّ شفاعتهنّ مقبولة لدى الله)[17]، وممّا يُروى في شأن أصنامهم أنّه: (قال واحدٌ ما نفع أحدًا صنمُه مثل ما نفعني، قالوا كيف هذا؟ قال صنعته من الحيس، فجاء القحط فكنت آكله يوما فيوما، وقال آخر: رأيت ثعلبين جاآ وصعدا فوق رأس صنم لي وبالا عليه، فقلت: أربٌّ يبول الثّعلبانُ برأسه؟ فجئتك يا رسول الله وأسلمت. فيضحكون، ويتبسّم رسول الله ﷺ. رواه مسلم). كانت الأصنام هي التي جمعت أغلبيّة العرب، في بيئة تحمل من أسباب التّفرقة ما لا يُعدّ، ورغم قدسيّة الكعبة عند العرب، منذ بنائها، فإنّها في معتقدهم هي المكان الأليق بآلهتهم من الأصنام، ولذلك كانت أصنام الكعبة (كثيرة منتشرة حولها وفي جوفها، وأعظمها هُبَلُ وكانوا يستقسمون عنده بالقداح، ويستخيرونه في أمورهم وأعمالهم، ولعلّه إله الحظّ عندهم)[18]. كان العرب، شأنهم شأن كلّ الشّعوب، في مراحل التّاريخ التي خلت من الأنبياء، يؤمنون بالله، ولكن لم تكن طريقة عبادتهم إيّاه تدلّ تماما على توحيده، ولهذا كان اللّجوء في العبادة إلى وسيط، ممّا يفسد توحيدهم لله، يجعل منهم مشركين، ولكن، مع مع ذلك يصرّ الباحثون (على أنّ العرب، مع إشراكهم وتعدّد معبوداتهم، كانوا يميلون في جملتهم إلى التّوحيد، ويتقرّبون إلى الله بعبادة الأصنام والكواكب كأنّهم يجعلونها ذرائع للوصول إليه. ولا ريب أنّ اليهوديّة والنّصرانيّة كان لهما يد فعّالة في توجيه الفكر العربيّ إلى الوحدانيّة)[19].

على أنّ من الباحثين من يؤكّد غير هذا، ويجعل من فكرة (التّوحيد) لا معنى لها عند العربيّ، وهذه الفكرة لا تتماشى وطبيعة الإنسان العاقل الذي لا يتوقّف عن طرح الأسئلة، حول بداية الخلق والمصير والعقاب والحساب... هذه الأسئلة التي تقود عادة إلى معرفة الله، يقول أحدهم: (البدويّ موحّد، ولكنّه قليل الاحتفال بالعبادات وبالدّين كلّه إذا كان آمنا على نفسه، "يخاف الله في ساعات الضّيق والفزع، فإذا انكشفت غمّته عاد إلى الجحود". والأوثان كانت طارئة على بلاد العرب)[20]، وهو رأي يخالف كلّيّة آراء أخرى كثيرة في الموضوع، سنتناولها، وكأنّ العرب (البدو) كانوا مستهترين بالدّين، يلجأون إليه في وقت الضّيق، ويهجرونه في وقت اليسر. ولكنّ المعروف أنّهم (كانوا في جاهليّتم على أديان مختلفة، ومذاهب متعدّدة، يؤلّهون الأصنام

---

[17] - عمر فرّوخ، تاريخ الأدب العربيّ، الجزء الأوّل الأدب القديم، من مطلع الجاهليّة إلى سقوط الدّولة الأمويّة، ص: 67، الهامش).

[18] - بطرس البستانيّ: أدباء العرب في الجاهليّة وصدر الإسلام، حياتهم آثارهم نقد آثارهم، دار مارون عبّود، توزيع دار الجيل، بيروت، لبنان، ص: 28.

[19] - بطرس البستانيّ: أدباء العرب في الجاهليّة وصدر الإسلام، ص: 29.

[20] - عمر فرّوخ، تاريخ الأدب العربيّ، الجزء الأوّل الأدب القديم، من مطلع الجاهليّة إلى سقوط الدّولة الأمويّة، ص: 61.

والكواكب، ويعبدون الله، ويخلطون المذاهب بعضها ببعض، مازجين التّوحيد بالشّرك، والعقائد السّماويّة بالعقائد الوثنيّة. وهم إلى ذلك ليسوا على دين ثابت، أو عقيدة مكينة، شأنهم في حياتهم المتنقّلة المضطربة)[21]، ولكن مع كثرة العقائد التي كانوا يؤمنون بها، كانت عقيدة التّوحيد من العقائد الشائعة جدّا بينهم،(قال زيد بنُ عمرٍو بنِ نُفيل:

أَرَبًّـــــــا واحـــــــدًا أمْ ألـــــــفُ رَبٍّ ... أَديـــــــنُ، إذا تَقَسَّـــــــمَتِ الأُمُـــــــورُ

عزلـــــتُ الـــــلاّتَ والعُـــــزَّى جميعًـــــا ... كـــــذلك يفعـــــلُ الجَلِـــــدُ الصَّـــــبُورُ

فـــــلا عُـــــزَّى أَديـــــنُ ولا ابنتيْهـــــا، ... ولا صـــــنمَيْ بنـــــي عَمْـــــرٍو أَزُورُ)[22]

وكانوا يؤمنون بالبعث ويوم الحساب: (قال قسُّ بنُ ساعدةٍ الإياديّ:

يـــا بـــاكيَ المـــوتِ، والأمـــواتُ قـــي جـــدثٍ ... علـــيهمُ مـــن بقايـــا خَـــزّهِمْ خُـــرَقُ

دعهـــم: فـــإنَّ لهـــم يومًـــا يُصـــاحُ بهـــم ... كمـــا يُنبَّـــهُ مـــن نوماتـــه الصّـــدقُ

حتّـــى يجيئـــوا بحـــالٍ غيـــرِ حـــالِهِمُ ... خَلْـــقٌ مضـــى، ثـــمّ هـــذا بعـــد ذا خُلِقُـــوا)[23]

كما أنّ كتب التّاريخ، التي اعتمدت فيما تداولته على نصوص الشّعر الجاهليّ، قد تحدّثت عن (الحنيفيّة)، التي هي مذهب (فطرة الله التي فطر النّاس عليها)، ولا تنتمي إلى اليهوديّة ولا النّصرانيّة، وأتباعها غير مشركين. وقد كان الحنيفيّون كثرا في العصر الجاهليّ، (أمّا الصّورة الصّحيحة لهؤلاء الحنفاء فيجب أن نطلبها في القرآن الكريم. لقد جاءت كلمة حنيف في الإفراد وكلمة حنفاء في الجمع اثنتي عشرة مرّة في القرآن الكريم كلّها تدور على أنّ الحنيف هو الشّخص على ملّة إبراهيم (وكان إبراهيم قبل موسى بزمن طويل). وتصف هذه الآيات الكريمة الرّجل الحنيف على ملّة إبراهيم بأنّه ليس يهوديّا ولا نصرانيّا ولا مشركا بالله، ولكنّه على "فطرة الله التي فطر النّاس عليها": موحّد يعمل الصّالحات)[24]، والحنيفيّ هو الذي اتّبع إبراهيم عليه السّلام في ملّته، ويكفي أنّ الله قد نزّهه عن الشّرك به، وأكّد توحيده له. قال إبراهيم عليه السلام ﴿**إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾[25]، و("حنيفا" أي في حال كوني حنيفا، أي: مائلا عن الشرك إلى التوحيد؛ ولهذا قال: ﴿وما أنا من المشركين﴾[26]، و(لحسن الحظّ، فإنّ الشّعر الجاهليّ استطاع أن يحفظ لنا بعضا من العقائد الحنيفيّة، كما وردت على

---

[21] - بطرس البستانيّ: أدباء العرب في الجاهليّة وصدر الإسلام، ص: 26، 27.

[22] - عماد الصّبّاغ: الأحناف.. دراسة في الفكر الدّينيّ التّوحيديّ في المنطقة العربيّة قبل الإسلام، دار الحصاد للنّشر والتّوزيع، ط 1، دمشق، سوريا، 1998، ص: 49.

[23] - عماد الصّبّاغ: الأحناف.. دراسة في الفكر الدّينيّ التّوحيديّ في المنطقة العربيّة قبل الإسلام، ص: 50.

[24] - عمر فرّوخ: تاريخ الأدب العربيّ، الجزء الأوّل الأدب القديم، من مطلع الجاهليّة إلى سقوط الدّولة الأمويّة، ص: 61، 62.

[25] - سورة الأنعام، **الآية: 79.**

[26] - https://quran.ksu.edu.sa/tafseer/katheer/sura6-aya79.html.

ألسنة الحنفاء أنفسهم)[27]، ممّا يجعلنا من خلال النّصوص نتأكّد من مختلف عقائد الجاهليّين، وأنّهم لم يكونوا كلّهم وثنيّين، و(المواضيع الرّئيسيّة التي يتعرّض لها الشّعر الحنيفيّ [...] هي: التّوحيد بالله ورفض عبادة الأصنام، الإيمان بالبعث ويوم الحساب، خلق الكون، القصص الدّينيّ وقصص الأنبياء، الموقف من تحريم الخمر وأكل الميتة، الملائكة والشّياطين، الحكمة والموقف الأخلاقيّ والمعرفيّ)[28]، وبالتّالي، فالحنفاء فيما اعتقدوه كانوا أقرب إلى ما دعت إليه الأديان السّماويّة كلّها، بالرّغم من أنّهم – كما أكّد ذلك القرآنُ الكريمُ – لم يكونوا يهودا ولا نصارى، ثمّ لم يكونوا مسلمين، لأنّهم وُجدوا قبله، ونفهم من كلّ هذا أنّهم اهتدوا إلى معتقدهم ذاك بالفطرة التي فطر اللهُ النّاسَ عليها، كما ذكر القرآن، وقد (كان في الجاهليّة أفراد متحنّفون كَثُرَ عددهم قبيل ظهور الإسلام، ولكن لم يبلغوا إلى أن يكونوا جماعات. هؤلاء المتحنّفون أو الحنفاء كانوا يبنون أعمالهم الخاصّة والعامّة على الأخلاق الكريمة وما يقضي به العقل العمليّ في الحياة. وكانوا لا يَشْرَكُون قومَهم في حياتهم الجاهليّة. إنّ هؤلاء كانوا قد حرّموا على أنفسهم الخمر وهجروا الأوثان (على قلّتها في بلاد العرب) وتركوا الثّأر والغزو. ويبدو أنّهم اعتقدوا بالله وحده وبحياة بعد الموت. وكان هؤلاء أيضا قد سلكوا سبيلا من سبل الزّهد، ولكن لم يكن لهم عبادات معيّنة يقومون بها)[29].

وفي مقابل هؤلاء الحنفاء الموحّدين لله، بالفطرة، التّابعين لملّة إبراهيم عليه السّلام، يذكر الباحثون عربا آخرين، ينتمون إلى ديانات أخرى، سماويّة وغير سماويّة. يقول ريجيس بلاشير: (إنّ قبائل جِذام وتَغْلِب وعاملة هي مسيحيّة، ولكنّها مسيحيّة سطحيّة. وإنّ السّرعة التي اعتنقت بها القبائل المذكورة الإسلام لدلالة على رقّة إيمانهم بالمسيحيّة. والخلاصة فإنّها (أي المسيحيّة) لم تُخلق من أجلهم لأنّها جهلت بعض جوانب النّفسيّة العربيّة، ورأى الكثيرون منهم (من العرب) أنّها ديانة دخيلة تحمل طابع الغزاة فلقيت مقاومة المغلوبين)[30]، ومعنى هذا أنّ العرب الذين كانوا يدينون بالمسيحيّة – على قلّتهم – لم يكن إيمانهم بها إيمانا عميقا، كما يجب أن يكون الإيمان، والدّليل على ذلك في رأي هذا الباحث، أنّ هؤلاء قد تحوّلوا، وبيسر شديد، إلى الإسلام بعد نزوله، وإن كانت قضيّة التّحوّل إلى الإسلام هنا قد مسّت العرب جميعا، وبمختلف عقائدهم، وفي المقابل، يمكن التّأكيد على أنّ الدّيانة الأولى التي كانت منتشرة عند عرب الجاهليّة، أكثر من المسيحيّة ومن غيرها، هي الوثنيّة، ثمّ (إنّ جميع الشّواهد التي قيل إنّها

---

[27] - عماد الصّبّاغ: الأحناف.. دراسة في الفكر الدّينيّ التّوحيديّ في المنطقة العربيّة قبل الإسلام، ص: 47.

[28] - عماد الصّبّاغ: الأحناف.. دراسة في الفكر الدّينيّ التّوحيديّ في المنطقة العربيّة قبل الإسلام، ص: 47، 48.

[29] - عمر فرّوخ، تاريخ الأدب العربيّ، الجزء الأوّل الأدب القديم، من مطلع الجاهليّة إلى سقوط الدّولة الأمويّة، ص: 61.

[30] - عمر فرّوخ: تاريخ الأدب العربيّ، الجزء الأوّل الأدب القديم، من مطلع الجاهليّة إلى سقوط الدّولة الأمويّة، ص: 63.

لشعراء نصارى ليس فيها سوى كلام في الزّهد وذكر الله والموت، ممّا ليس خاصّا بدين معيّن. حتّى عديّ بن زيد الذي كان نصرانيّا على القطع لم يتضمّن شعره سوى هذه الأمور العامّة التي تعمّ جميع الأديان)[31].

وقد كانت للعرب في الجاهليّة عقائد أخرى، لا تمتّ إلى الأديان السّماويّة التّوحيديّة بصلة، وهي عقائد دخلت بلادهم عن طريق اتّصالهم بغيرهم من الأمم عن طريق التّجارة، كالمجوسيّة التي دخلت بلادهم من الفرس التي كانت منتشرة، وهي ديانة ارتبطت بعبادة النّار، ولذلك فـ(منهم من عبد النّار، أو قال بالثّنويّة، أو بالدّهريّة. ومنهم من أحلّ زواج الأب بابنته. وهذه العقائد سرت إليهم من الفرس والمجوس وما عندهم من معتقدات مزدكيّة ومانويّة. قيل إنّ المجوسيّة كانت في تميم، وقد تزوّج حاجب بن زرارة ابنته مخالفا سنّة العرب، ومتّبعا سنّة مزدك. وقيل إنّ الزّندقة في قريش، ولعلّها المانويّة التي تقول بإله النّور وإله الظّلام، أو لعلّها الدّهريّة التي تنكر الخالق والآخرة)[32]، كما أنّهم (عبدوا الزهرة، وأطلقوا اسم اللاّت على الشمس، وصنعوا لها صنما، وأطلقوا على القمر وُدًّا، وعلى الزهرة العزّى، وكانت العزّى لغطفان، ومثّلوها بشجرة، وقد قطعها خالد بن الوليد بعد ظهور الإسلام)[33].

عندما نتحدّث عن الدّين / العقيدة لدى عرب الجاهليّة، نصل إلى نتيجة تحمل صورة واضحة عن تديّنهم بشكل عامّ. لم يكن العرب أمّة تنكر وجود الله، وهم حتّى في وثنيّتهم، وعبادتهم للأصنام كانوا يؤمنون بالله، ولكنّهم لم يعبدوه مباشرة، إنّما أشركوا معه أصناما في ألوهيّته، لأنّهم اعتقدوا أنّ هذه الأصنام هي واسطة بينهم وبين اللّه. ثمّ إنّ هناك حنفاء موحّدين على ملّة إبراهيم ﷺ، وهم قوم موحّدون، يؤمنون باللّه وحده، ويؤمنون بمجموعة من القيم التي لم ينكرها الإسلام بعد نزوله، ولا تتعارض في شيء مع كلّ الدّيانات السّماويّة التّوحيديّة، والدليل على ذلك هو القيمة التي كانت للكعبة التي بناها إبراهيم ﷺ وابنه إسماعيل ﷺ منذ مئات السّنين في الجاهليّة، (الكعبة مزار لأكثر القبائل، يحجّونها، ويعتمرون إليها، ويُحرمون عندها، ويطوفون حولها سبعا، ويلثمون حجرها الأسود، ويكسونها الحلل والدّيباج، ويهدون إليها الهدي، وينحرونه متقرّبين، ويريقون دمه على أوثانها، ويسعون بين الصّفا والمروة، ويرمون الجِمار في مِنًى. وكانت السّيادة لقريش دون غيرهم، فهم سدنةُ البيت ورَفَدَتُه وسُقاتُه)[34]، فرغم وثنيّتهم، (سعوا

---

[31] - عمر فرّوخ: تاريخ الأدب العربيّ، الجزء الأوّل الأدب القديم، من مطلع الجاهليّة إلى سقوط الدّولة الأمويّة، ص: 63.

[32] - بطرس البستانيّ: أدباء العرب في الجاهليّة وصدر الإسلام، حياتهم آثارهم نقد آثارهم، دار مارون عبّود، توزيع دار الجيل، بيروت، لبنان، ص: 28.

[33] - حسني عبد الجليل يوسف: الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، ص: 08.

[34] - بطرس البستانيّ: أدباء العرب في الجاهليّة وصدر الإسلام، ص: 28.

بين الصّفا والمروة)، و(رموا الجمار في منى) – وهي من أركان الحجّ في الإسلام – ممّا يدل على أنّ العرب عامّة كانوا على ملّة إبراهيم ﷺ، وحتّى الذين عبدوا الأصنام لم يتخلّوا تماما تلك الملّة.

جغرافيّة بلاد العرب:

يُروى أنّ الشاعر علي بن الجهم (وقف... لأوّل مرّة بين يدي الخليفة العبّاسيّ المتوكّل، مادحًا، وهو الشّاعر البدويّ الفصيح المطبوع، فلم تسعفه قريحته بأجمل من هذا الكلام يقوله للخليفة:

أنت كالكلب في حفاظك للودّ وكالتّيس في قراع الخطوبِ
أنت كالدّلو، لا عدمناك دلوًا من كبار الدّلا، كبيرَ الذّنوبِ

يدهش الحاضرون في مجلس الخليفة من هذا الشّاعر الذي يمدح الخليفة بأنّه كالكلب في حفظه الودّ، وكالتّيس في مواجهة المصاعب والأخطار، وكالدّلو الذي يحمل الماء ويجلبها - كثير الذّنوب - أي غزيرة من قاع البئر. لكنّ الخليفة المتوكّل لا يغضب، ولا تصيبه الدّهشة، وإنّما يدرك بلاغة الشّاعر ونبل مقصده وخشونة لفظه وتعبيره، وأنّه لملازمته البادية، فقد أتى بهذه التّشبيهات والصّور والتّراكيب. ثمّ هو يأمر للشّاعر بدار جميلةٍ على شاطئ دجلة، بحيث يخرج الشّاعر إلى محالّ بغداد يُطالع النّاس ومظاهر مدينتهم وحضارتهم وترفهم. يُقيم الشّاعر "عليّ ابن الجهم" مدّة من الزّمن على هذه الحال، والعلماء يتعهّدون مجالسته ومحاضراته، ثمّ يستدعيه الخليفة و ينشده الشّاعر قصيدة جديدة... فتكون المفاجأة... قصيدة من أرقّ الشّعر وأعذبه... يقول مطلعها:

عيونُ المها بينَ الرُّصافةِ والجسرِ جلبْنَ الهوى منْ حيثُ أدري ولا أدري
أَعَدنَ لِيَ الشَوقَ القَديمَ، وَلَم أَكُنْ سَلَوتُ، وَلكِنْ زِدنَ جَمرًا عَلى جَمرِ

يقول المتوكّل: انظروا كيف تغيّرت به الحال، والله خشيت عليه أن يذوب رقّة ولطافة)[35].

الشّاعر (بطل) هذه الحكاية التي تتداولها كتب التّراث هو "عليّ بن الجهم"، البدويّ الذي أورثته البادية خشونة العيش، وخشونة الطّبع، ممّا انعكس على شعره، فتجرّد من كلّ رقّة، ثمّ إنّ البادية بشحّها وقحطها وجفافها طبيعيّا، قد انعكست على شعره، فلم تمنحه من صور الوفاء سوى صورة الكلب يحرس سيّده، وصورة التّيس والدّلو، ذاك كلّ ما كانت تلك البادية تملكه، فصنعت ابن الجهم صاحب النّصّ الأوّل، في حين أنّ بيئة بغداد قد منحته (دارا جميلة على شاطئ دجلة)، وحواليها كلّ مظاهر المدنيّة والتّرف، قد صنعت منه ابن الجهم صاحب النّصّ الثّاني. لهذا فدراسة البيئة بكلّ مكوّناتها – السّياسيّة والدّينيّة والاجتماعيّة والجغرافيّة... - تمنح

35 https://www.diwanalarab.com/%D9%85%D8%B9-%D8%B9%D9%84%D9%8A-%D8%A8%D9%86-%D8%A7%D9%84%D8%AC%D9%8E%D9%87%D9%92%D9%85-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%AD%D9%83%D8%A7%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%B7%D8%B1%D9%8A%D9%81%D8%A9

دارس الشّعر كلّ المعطيات التي صنعت الشّاعر أوّلا، وتمكّنه ثانيا من فهم شعره على ضوء معطياتها.

تميّزت بلاد العرب قبل الإسلام بكونها في أغلبها أرضا صحراويّة قاحلة شديدة الحرارة، قليلة الماء، شحّيحة بأسباب الحياة، ممّا جعل العرب فيها دائميْ الحركة، والتّنقّل بحثا عن الماء، والعشب لمواشيهم، وهذه الحركة المستمرّة هي التي جعلت منهم بدوا رحّلاً لم يعرف أغلبهم الاستقرار أبدا، إلاّ من سكن مكّة والمدينة والطّائف وصنعاء، فإنّها حواضرهم آنذاك، وما زالت عامرة آهلة إلى يومنا هذا.

هذه البيئة الممتدّة على كامل الجزيرة العربيّة، لم تكن كلّها موطنا للشّعر والشّعراء، وإنّما انفردت فيها (نجد) بكونها موطن الشّعراء في الجاهليّة، وفيها وُلد هذا الشّعر الذي ملأ حياة العرب إلى اليوم؛ وفي تحديد موقعها يقول أحد الباحثين: (تمتد في شمالي شبه جزيرة العرب هضبة متّسعة تدعى نَجْدًا (المكان المرتفع)، سطحها ذو انحدار تدريجيّ من الغرب إلى الشّرق. وتَحُدُّ نجدا من الغرب جبال اسمها الحجاز لأنّها تحجز (تفصل) بين تهامة (الأرض المنخفضة) على ساحل البحر الأحمر وبين نجد. أمّا من الشّرق فتحدّه مرتفعات تفصل بينه وبين البحرين (شاطئ شبه جزيرة العرب على خليج البصرة). وتتّصل هضبة نجد في الشّمال بالعراق والشّام، أمّا في الجنوب فتتّصل باليمامة. وهضبة نجد هي المكان الذي نشأ فيه فحول الشّعراء قبل الإسلام)[36].

انعكس غياب الاستقرار في حياء العربيّ الجاهليّ على حياته كلّها، ولعلّ هذا الأمر قد مسّ بشكل مباشر قولَهُ الشّعرَ، فارتبط شعره بالارتجال، وهو أن يقوله دون إعداد أو تحضير سابق، فيكون ابن لحظته، كردّ فعل على موقف طارئ يعيشه هذا الشّاعر. وهذه قضيّة شعريّة مهمّة جدّا تربط الشّعر بصدق التّجربة، وعليها تتحدّد بالضّرورة شاعريّة الشّاعر، ودرجة إبداعه. ثمّ، إنّ غياب الاستقرار هو حرمانٌ للعربيّ المرتحل أبدا من أوقات يتفرّغ فيها لنفسه تماما، يستثمرها في التأمّل والتّفكير، ولذلك كانت ظاهرة الارتجال من أهمّ مخلّفات البيئة الصّحراويّة على الشّاعر العربيّ القديم.

القبيلة، ونظام المجتمع:

[36] - عمر فرّوخ، تاريخ الأدب العربيّ، الجزء الأوّل الأدب القديم، من مطلع الجاهليّة إلى سقوط الدّولة الأمويّة، ص: 59.

إنّ أهم ما اتّسمت به حياة العرب في العصر الجاهليّ[37] متعلّق بشكل مباشر بطبيعة النظام السياسي والاجتماعي الذي كان يُدير شؤونهم، وهو النظام القبلي، الذي لم يكن اختيارا فضّلوه على غيره من الأنظمة، وإنّما كان الخيارَ الوحيدَ الممكنَ في بيئةٍ كلُّ ما فيها يعمل ضدّ الإنسان، ثمّ لضرورة التحالف والاتحاد بين أفراد القبيلة الواحدة، وبين أكثر من قبيلة، لمواجهة خطر أكبر يهدّد وجودها، (وتعتبر القبيلة في الأصل عبارة عن مجموع أرهاط وتفرّعات يجمعها تحت اسم واحد، واقعيّ أحيانا، رئيس قديم لقبيلة هامة، وتستطيع مجموعة غريبة أن تندمجبتأثير أسباب عديدة، كالقحط والأوبئة، والحروب في قبيلة أخرى أقوى منها [...] ففي القبيلة تجري الحياة دون اهتمام بشؤون الجوار، وإن العمل هو الذي يربط بين أجزائها، كما أن روح الهجوم والدفاع تنشر روح الاتحاد بينها)[38].

(يقول ذو الإصبع العدوانيّ:

لِيَ ابنُ عَمٍّ على ما كان من خُلُق مُخْتلِفَان فأقليه ويَقْليني
أَزْرَى بنا أنّنا شالَتْ تعامتُنا فَخَالَني دُوْنَه وخِلْتُه دُوْنِي
يَا عمرو إلاّ تَدَعْ شَتْمي وَمَنْقَصَتي أَضْرِبْكَ حتّى تقولَ الهامة اسْقُوْني
عنّي إليكَ فما أمّيَ براعِيَةٍ ترعى الْمَخَاضَ، وما رَأْي بمَغْبُوني
وَأَنْتُمْ مَعْشَرٌ زِيْدٌ على مائةٍ فاجْمَعُوا أَمْرَكُمْ كُلاًّ فكِيْدوْني
لَوْ تَشْرَبُوْنَ دَمي لم يَرْوَ شاربكم وَلاَ دِمَائَكُمْ جَمْعَاً تُرَوّيني
لا يُخْرِجُ الكرْهُ منّي غيرَ مَأْبِيَةٍ وَلاَ أَلِيْنُ لِمَنْ لاَ يَبْتَغِي لِيْني

هذه القصيدة توقفنا على الحقيقة القبلية، فالعلاقات داخل القبيلة ليست قائمة على التأييد والتضامن دائماً. وهذا أقرب إلى الحقائق الاجتماعية في كل العصور. فابنا العمّ هنا يعيشان أعلى درجات البغضاء والحقد. وقد اختلفا اختلافا بيّنا لدرجة جعلت ذا الإصبع يحكيه شعرا فينذره بالضّرب حتّى الموت، ويغرّض به فيكشف لنا عن ازدراء الجاهليّين لأبناء الإماء)[39].

وبالتّالي، فالقبيلة تجمّعٌ بشريٌّ الغايةُ منه المصلحةُ العامّةُ المتمثّلةُ في تأمين وجود الأفراد، ودفعِ كلّ الأخطار المهدّدةِ لهذا الوجود، والبيئةُ في حدّ ذاتها خطرٌ جسيمٌ على ساكنيها، بحرارتها وجفافها وخلوّها من كلّ متطلّبات الحياة، ولذا، فـ(القبيلة أساس الحياة الاجتماعيّة. والقبيلة أسرةٌ كبيرةٌ يربط بعضَ أفرادها ببعض سَبَبٌ من القرابة أو الزّواج. وربّما انتسب شخصٌ إلى قبيلة إمّا بالولاء أو الحلف فأصبح وكأنّه من تلك القبيلة نسبًا ودمًا. وكذلك ربّما خلعت القبيلةُ أحد أفرادها إذا خرج على بعض مبادئها أو خالف مُثُلَهَا العليا. وكان في القبيلة عبيدٌ أيضا.

---

[37] - ينظر: بطرس البستاني: أدباء العرب، الجزء 1، ص: 6.

[38] - رجيس بلاشير: تاريخ الأدب العربي العصر الجاهليّ، تع: إبراهيم الكيلاني، دار الفكر، دمشق، ص:24، 25.

[39] - علي الشعيبي: الإيجابية والسلبية في الشعر العربي بين الجاهلية والإسلام، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، ص: 54، 55.

والعبدُ يكون في الأصل أسيرا أو مُشترى بالمال أو ابن أمةٍ: جارية مُلكت بالسّبي أو الشّراء)[40]، وبذلك فالقبيلة قائمة على القرابة أو الزّواج أو الولاء والحلف، ولكن مخالفة مبادئها ومثلها العليا يؤدّي إلى الخلع، مثلما حدث مع الصّعاليك مثلا، لأنّ في هذه المخالفة معارضة لأساس الانتماء إليها، وبذلك يصبح وجود المخالف لها ضمنها لا يضيف شيئا إلى القبيلة، ثمّ هو يتعارض مع المبدأ الأساس الذي كان مقدّسا عند العربيّ في الجاهليّة، وهو قاعدة (انصر أخاك ظالما أو مظلوما)، وهو مبدأ يتطلّب من الفرد الذّوبان كلّيّةً في الجماعة أو القبيلة.

كما أنّ القبيلة هي (الجماعة تنتمي إلى نسب واحد، ويرجع ذلك النسب إلى جدّ أعلى، أو إلى جدّة وهو في الأقلّ. ولا تزال اللّفظة حيّة مستعملة يستعملها العرب في كلّ مكان في المعنى الاصطلاحيّ المستعمل عند النّسّابين. والقبيلة هي المجتمع الأكبر بالنّسبة إلى أهل البادية، فليس فوقها مجتمع عندهم. وهي في معنى "شعب" عندنا وفي مصطلحنا الحديث)[41]، وهذا النّسب إلى (جدّ أعلى، أو إلى جدّة) مبرّر موضوعيّ للتّضحية بالرّوح من أجل المبدإ المذكور سابقا، لأنّها ليست في الواقع سوى عائلة واحدة، يتوجّب على كلّ فرد فيها أن يضحّي في سبيل (أهله)، ولو كانت تضحيته بالرّوح، ولذلك يمكن القول – مبدئيّا – إنّ المجتمع الجاهليّ – ممثّلا في القبيلة – مجتمع تسوده الأخوّةُ والتّآزر، لا يعرف الظّلم ولا الجور، لأنّ أبناءه إخوة بالدّم والنّسب، ولكنّ الواقع أنّه مجتمع طبقيّ، فيه أسياد وأغنياء، وفيه فقراء وعبيد ومنبوذون... ورغم كلّ ما يمكن أن يُقال، فـ(قد كانت القبيلة في العصر الجاهليّ قوام المجتمع، فهو يتألّف من قبائل عدّة منتشرة في أرجاء الجزيرة العربيّة. وقد دفع مناخها الحارّ وقسوة طبيعتها كثيرا من القبائل إلى التّنقّل وعدم الاستقرار، طلبا لماء يروّي ماشيتها، ومرعى يطعم سوامّها. ولمّا كان الماء قليلا، والمرعى شحّيحا، نشبت النّزاعات حولهما، وكثرت الأيّام والوقائع بسببها، وجرّت الدّماءُ دماءً أخرى استنادا إلى قانون الثّأر، وتكتّلت القبائل، وتحالفت في مواجهة بعضها بعضا)[42]. إنّ (أيّام العرب) التي ملأت التّاريخ العربيّ الجاهليّ ظاهرة أدّت إليها البيئة الصّحراويّة الجاهليّة ومناخها؛ فالعربيّ – كغيره من الأقوام - لم يُخلق ليقضي حياته في القتال، وإنّما وجد نفسه مجبرا على القتال باستمرار حفاظا على حياته، بمحاولة امتلاك مصادر الحياة: الماء والمرعى، هذه المصادر التي حرمه البحث عنها من نعمة الاستقرار، ولكنْ، في المقابل فـ(القبائل لم تكن كلّها في حركة دائبة وتنقّل مستمرّ، فثمّة قبائل قد استقرّت واستوطنت وشكّلت حواضر عدّة، أهمّها: مكّة، والطّائف، ويثرب. وقد سعت هذه القبائل إلى إحلال الأمن بين ربوعها؛ لأنّها جعلت مصدر رزقها بعيدا عَنْ قَوْدِ الكتائب، وَجَرِّ الغارات، وشنّها على القبائل الأخرى، فاعتمدت على التّجارة، وعلى

---

[40] - عمر فرّوخ، تاريخ الأدب العربيّ، الجزء الأوّل الأدب القديم، من مطلع الجاهليّة إلى سقوط الدّولة الأمويّة، ص: 60.

[41] - جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء الأول، ط 2، 1993، ص: 510، 511.

[42] - عبد الغنيّ أحمد زيتونيّ: الإنسان في الشّعر العربيّ، مركز زايد للتّراث والتّاريخ، ط 1، 2001، ص: 17.

الزّراعة في بعض الأحيان، ولكنّها، ظلّت، مع ذلك، تسير على النّظام القبليّ في حياتها، وتتحكّم فيها العلاقات الاجتماعيّة والأعراف السّائدة في جزيرة العرب)[43]، العربُ إذن – بعضُهُمْ – عرفوا التّجارة والزّراعة، ولكنّ ذلك لم يتحقّق سوى للّذين سمحت لهم البيئة بالاستقرار، وهم الذين سكنوا حواضر ذلك العصر؛ كمكّةَ والطّائفِ ويثربَ، رغم أنّه (لم يكن الذين يعملون في الزّراعة، وفي الصّناعة على الأخصّ، يتمتّعون باحترام مّا، فالأخطل لمّا أراد أن يهجوَ الأنصار من أهل المدينة قال لهم: "وخذوا مساحِيَكم، بني النّجّار"، دلالة على أنّهم مزارعون. أمّا جرير فكان يعيّر الفرزدق بأنّ أجداده بنو القين، سُمُّوا بذلك لأنّهم كانوا حدّادين)[44]. عاش هؤلاء حياة مختلفة عن العرب الرُّحَّلِ، لأنّ طبيعة الاستقرار في المكان تستوجب نمطا من العلاقات يستجيب لطبيعة النّاس المستقرّين؛ كالجوار، وأماكن الاجتماعات السّياسيّة ودور العبادة والتّجارة... وهذه القضايا مجتمعة حقّقت بالتّقريب مجتمعا يخضع إلى ما يشبه (الدّولة)، وفي المقابل (كانت عرب البادية تعيش قبائل متقاطعة، لا يجتمع بعضها إلى بعض إلاّ في حِلْفٍ موقوتٍ. فلم يستطيعوا في صحرائهم، وما يقتضي لها من حياة قبليّة، أن يُنشئوا مجتمعا راقيا، وقوميّة شاملة، ودولة موحّدة؛ ولم تبتعد عصبيّتهم عن القبيلة، وإنْ فاخروا بجنسهم واعتدّوا به على سائر الأمم. وبين الفرد والقبيلة صلةٌ مكينةٌ تجعل الفرد بجميعه للقبيلة، والقبيلة بجميعها للفرد. فإذا نزل عارٌ بالقبيلة أصاب كلّ شخص منها، وإذا نبه ذكر شخص عاد فخره إلى القبيلة بأسرها. وتتحمّل القبيلة جناية أخيها، وتنصره ظالما أو مظلوما)[45].

وكانت القبائل تتمايز فيما بينها بما تملكه من قوّة أو مال أو وجاهة، وكانت قريش هي سيّدة القبائل على الإطلاق؛ فقد ملكت التّاريخ العريق، والمال بالتّجارة، ثمّ كان موطنها (مكّة) حاضرة العرب وسيّدة الحواضر. ومن ساد فيها فقد ملك السّيادة كلّها، وكان أهلها أقرب النّاس إلى المدنيّة في ذلك العصر، ولذا كانوا أكثر تأثيرا في غيرهم من العرب بسبب سيادتهم على الكعبة. التي كان العرب يحجّون إليها سنويّا من كلّ أنحاء الجزيرة، وكان لهذا العامل دور فعّال في تنشيط حركة التّجارة فيها، (وطبيعيّ أن يكون سكّان الأمصار أدنى إلى منازع المدنيّة من غيرهم من أهل البدو ومن سكّان الرّيف من القرى، وأن يكونوا أيضا ألطف أذهانا، وأرقّ حاشية من هؤلاء وهؤلاء، وأنّهم لهذا ولما خصّهم الله به من كثير من المواهب كانوا على استعداد قويّ لإصلاح لسانهم وتهذيب لغتهم بأخذهم من لغات القبائل الوافدة عليهم في مواسم الحجّ، وفي هذه الأسواق الأدبيّة المطيفة بمكّة حتّى عذب أسلوبُهُم، ورقّت حواشي لغتهم، وكانوا أهل بيت تعظّمه العرب، وتحجّ إليه، وتقيم فيه بين أَظْهُرِهِمْ الأيّام الطّوال، وكانت لهم وحدهم ولاية هذا البيت

---

[43] - عبد الغنيّ أحمد زيتونيّ: الإنسان في الشّعر الجاهليّ، ص: 17.

[44] - عمر فرّوخ، تاريخ الأدب العربيّ، الجزء الأوّل الأدب القديم، من مطلع الجاهليّة إلى سقوط الدّولة الأمويّة، ص: 65.

[45] - بطرس البستانيّ: أدباء العرب في الجاهليّة وصدر الإسلام، ص: 19، 20.

والحكومة بين العرب مع ما كانوا فيه من بَسْطَةِ الغنى وثروة التّجارة)[46]. وقد وردت لفظة عشيرة في الشّعر الجاهليّ، وفي الكتب التي أرّخت للعرب في الجاهليّة، بمعنى القبيلة، (وزهير بن أبي سلمى لا يدع لنا مجالا للشّكّ في أنّه يقصد بالعشيرة عبسًا وذبيان، وهما قبيلتان تتفرّعان من أصل واحد هو غطفان)[47].

وحين نتحدّث عن السّيادة في المجتمع العربيّ القبليّ القديم، القائم على النّزاعات الدّائمة، وعلى الحروب التي قد تستمرّ لسنوات طويلة، يقودها الأبطال والشّجعان، فإنّها لا تتحقّق لكلّ أفراد القبيلة، لأنّه (ينبغي أن يتحلّى الرّئيس بصفات محمودة عندهم، لتحقّ له السّيادة في قبيلته. وأجلّ هذه الصّفات الغنى والكرم والحلم والشّجاعة والفصاحة)[48]، وهي صفات خاصّة جدّا؛ ربّما تكون من صميم متطلّبات تلك البيئة. فالغنى والكرم صفتان كريمتان متلازمتان، يصبح غنى الشّخص نعمة عليه وعلى غيره بالكرم، ولو اجتمع بالبخل لما أصبح صاحبه أهلا للسّيادة، وهو كما نرى شرط يحقّق غايات اجتماعيّة، فيكون السّيّد سيّدا على قومه، ولكن في خدمتهم. والشّجاعة والحِلْمُ صفتان كريمتان متلازمتان أيضا، إذ لا خير في سيّد شجاع ولكنّه حقود لا يرأف ولا يعفّ ولا يرحم، فهو في هذه الحالة يضرٌّ بمجتمعه أكثر ممّا ينفعه، ثمّ سيكون ضحاياه من الضّعفاء الذين هم في أمسّ الحاجة إلى الحماية. إنّها صورة مشرّفة لسيّد القوم، في مجتمع تنعته كتب التّاريخ بأنّه لا يقيم وزنا سوى للقوّة! ثمّ عندما تُضاف صفة الفصاحة للسّيّد فذلك شرف يجعله من الذين يتقنون فنّ القول، ويقرّبه من الشّعراء الذين إذا نبغ منهم شاعر أقامت له القبيلة الأعراس، ولهذا الشّرف الذي يحوزه السّيّد بحيازته السّيادة على قومه (لا تستقرّ السّيادة في بيت واحد لأنانيّة العربيّ، ونزوعه إلى المنافسة، فكانت تنتقل في القبيلة من بيت إلى آخر وقلّما تعدّدت في بيت واحد؛ فكان تعدّدها من مفاخرهم. وأشرف البيوت عندهم بيتٌ تتابعت فيه رئاسة آباء ثلاثة، ثمّ اتّصلت بالرّابع، فيسمّى الكامل)[49]. لا عجب أن يبحث كلّ فرد وكلّ بيت في القبيلة عن السّيادة، ليس لكسب النّفوذ، ولكن لامتلاك شرف ومفخرة يضعان صاحبهما في قمّة هرم المجتمع العربيّ.

المرأة في المجتمع الجاهليّ:

سبق أن ذكرنا أنّ كلّ ما عرفناه عن العصر الجاهليّ إنّما عرفناه عن طريق الشّعر، وقد وضع الشّعراء المرأة في مرتبة يرتضيها (الفنّ)، يخالف بالتّأكيد – ولو جزئيّا – ما كانت تحتلّه من

---

[46] - محمّد هاشم عطيّة: الأدب العربيّ وتاريخه في العصر الجاهليّ، مطبعة مصطفى الحلبيّ وأولاده، ط 2، مصر، 1936، ص: 08.

[47] - عبد الغنيّ أحمد زيتونيّ: الإنسان في الشّعر العربيّ، ص: 21.

[48] - بطرس البستانيّ: أدباء العرب في الجاهليّة وصدر الإسلام، ص: 20.

[49] - بطرس البستانيّ: أدباء العرب في الجاهليّة وصدر الإسلام، ص: 20.

مكانة أمام الرّجل في واقع المجتمع؛ (فلا نبالغ إذا قلنا: إنّ المرأة في الشّعر امرأة نموذجيّة، صوّرها الشّعراء من خلال تصوّر خاصّ، ومعايير جماليّة قد يكون للجماعة دور فيها، لكنّ أكثرها من إبداعهم)[50]. الأمر طبيعيّ من حيث إنّ الشّاعر الإنسان يبقى دائما باحثا عن نصفه الثّاني، الذي يحقّق له وجوده كرجل حتّى يجده، ثمّ إنّ الشّعر باعتباره ذاتا وعاطفة أن يمنح المرأة مكانتها المقدّسة التي لا يتحقّق وجود الرّجل خارج وجودها، ولأنّ الشّعر عالم خاصّ بالشّاعر، يمارسه خارج كلّ معايير الجماعة، فقد بوّأ المرأة مكانتها الطّبيعيّة المقدّسة، هذا عن الشّاعر الذي يتناول في شعره المتخيّل والممكن، في مقابل المجتمع الذي يمارس ما هو كائن.

وإذا كنّا هنا (نتناول المجتمع في الشّعر وليس في الواقع، ولهذا أهمية كبيرة، فليس المجتمع الذي تحدث عنه الشعراء ووصفوه، وتجادلوا معه، وانضووا فيه، واغتربوا عنه، وتمردوا عليه، مطابقا للمجتمع الجاهلي)[51]، فإنّ المجتمع لم يكن ينظر إلى الواقع إلاّ من زاوية ما يجب أن يكون، ممّا يجعله قادر على مواجهة التّحدّيات التي فرضتها عليه سلطة البيئة والسّياسة، أمّا سلطة الأخلاق فلا سلطة تعلو عليها ما دامت لا تعرّضه للخطر؛ فإن فعلتْ، فضّل وجوده عليها، ولذلك قدّس قيمًا جعلها جزءًا من وجوده، وجعلته مضربا للمثل، فكان كريما كلّ الكرم، وشجاعا كلّ الشّجاعة... وحينما أصبح الرّفق بالمرأة – ولو كانت بنتا – يسيء إلى الشّرف، وأدها، ولذلك أصبح (البدويّ ينظر إلى المرأة كأداة للّذّة والنّسل يريد منها أن تلد له غلمانا ينافس بهم غيره من النّاس. والمنافسة بكثرة البنين من عاداتهم لأنّ الصّبيّ يُرجى للذّود عن الحمى، وإحياء الذّكر، وبه يتسلسل النّسب. فكانوا يكرهون ولادة البنت، وربّما تشاءموا بها فوأدوها. وعُرف الوأد في قبائل العرب قاطبة، بيد أنّه لم يكن شاملا، فإذا استعمله واحد تركه عشرة، حتّى جاء الإسلام فأبطله)[52]. لم يكن فعل الوأد حينما يمارسه الأدب فعلا اختياريّا، بل اضطرّ إليه صونا للشّرف. وإذا كان المجتمع الجاهليّ – في حرب تحقيق الوجود – لا يعترف إلاّ بالقوّة، فقد وضع الرّجل الذي يملكها في مكانة لا تدانيها مكانة المرأة، التي لا تملك القوّة فحسب، وإنّما تمثّل بفقدها عاملا يشوّه السّمعة، ويدنّس الشّرف، ومع ذلك فهي التي تلد الرّجال وتمدّ القبيلة بمصدر القوّة. من هذه الزّاوية علما الرّجل المرأة في ذلك المجتمع، وتحدّد مقامها فيه؛ (فكان متّصلا بالمحافظة على النّسب الصّريح الذي كان الجاهليّ يعبّر عنه بلفظ الأعراض. ولم يكن مقام المرأة الجاهليّة، فيما عدا ذلك، مقاما مرموقا. إنّ الغزوات المتوالية والحروب الطّوال كانت تُقَصِّرُ أعمار الذّكور وتقلّل عددهم. من أجل ذلك كان عدد النّساء في الجاهليّة يزيد دائما على عدد الرّجال أضعافا مضاعفة. فإذا أضفنا إلى ذلك مَدْرَكَ العِرْضِ عند البدويّ الجاهليّ خاصّة

---

[50] - حسني عبد الجليل يوسف: الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، ص: 07، 08.

[51] - حسني عبد الجليل يوسف: الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، ص: 07.

[52] - بطرس البستانيّ: أدباء العرب في الجاهليّة وصدر الإسلام، ص: 21، 22.

وقسوة الحياة الاقتصاديّة، وَضَحَتْ لنا المشكلة التي تعرّضت لها الحياة الاجتماعيّة يومذاك. والحلّ المحنوم الذي قبلته الحياة الجاهليّة: أنْ يجعل الرّجل الواحد في عصمته عددا كبيرا من النّساء حتّى تظلّ الأنساب معروفة في عمودها المخصوص من الرّجال)[53]. ولكنّ موضوع الوأد لم يرتبط دائما بقضيّة الشّرف. الواقع أنّ العرب قد لجأوا إليه لدوافع أخرى أحيانا تختلف من قبيلة إلى أخرى؛ فـ(منهم من كان يئد البنت لفرط الغيرة ومخافة العار إذا سُبيت أو انتهكت حرمتها، وهم بنو تميم وقبائل آخرون. ومنهم من كان يئدها إذا كانت زرقاء العينين أو سوداء اللّون أو برشاء أو كسحاء أو عرجاء تشاؤما بها. ومنهم من يقول: الملائكة بنات الله، فألحقوا البنات به، ويقتلوهنّ، وهو خزاعة وكنانة)[54]، ومهما تكن الدّوافع، وحتّى وإنْ تعلّقت بالشّرف، فقد استنكر القرآن بعد نزوله هذا الفعل الشّنيع، لأنّه قتل للنّفس بغير حقّ، ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾[55].

الغزوات والحروب في العصر الجاهليّ:

إذا كنّا نؤكّد كلّ مرّة نذكر فيها العصر الجاهليّ على الحروب والإغارات، التي كانت تمثّل إحدى جزئيّات الحياة اليوميّة بين القبائل العربيّة، فليس معنى ذلك أنّ العرب كانوا يملكون جيوشا ضخمة ومنظّمة ومجهّزة بـ(أحدث) الأسلحة وأدوات الحرب، ممّا كان قادرا على تعريض العرب لنهاية مفجعة.

كان العرب يعيشون حياة تقليديّة (بدائيّة) بما توفّر لهم من أدنى ضرورات الحياة. ولذلك يؤكّد الباحثون على أنّ تلك الحروب التي كانت لا تكاد تنتهي.و(على كثرتها، لم تكن تفجع البدو بالعدد الجمّ من الضّحايا، لأنّ معظمها قائم على النّهب والفرار بالغنيمة، حتّى إنّ حرب البسوس التي تعاود القتال فيها بنو بكر وبنو تغلب أربعين سنة لم يُقتل بها سوى قليل من الرّجال. فقد كان البدويّ يتحامى القتل جهده، لأنّ تقاليدهم تقضي بأخذ الثّأر أو دفع الدّيّات الثّقيلة؛ وربّما لا تغسل الدّيّات الأحقاد، لما في قبولها وترك الدّم من غضاضة، ثمّ لاعتقادهم أنّه إذا قُتل الرّجل، ولم يُدرك بثأره، خرج من رأسه طائر يشبه البوم يسمّونه الهامة والصّدى، فلا يزال يصيح: اسقوني اسقوني! حتّى يُقتل القاتل أو أحد أقاربه)[56]. لقد كانت أقرب إلى المناوشات منها إلى الحروب التي تقودها الجيوش النّظاميّة، ثمّ إنّ تبعات القتل الذي ينجرّ عنها يعجز أغلب العرب عن أدائها. وبعيدا عن الدّيّات التي يدفعها القاتل لأهل القتيل. كانت فكرة الأخذ بالثّأر ترهق أهل القتيل أكثر ممّا ترهق الدّيّة القاتل، فـ(شريعة أخذ الثّأر [...] خفّفت حوادث القتل، إذ

---

[53] - عمر فرّوخ: تاريخ الأدب العربيّ، الجزء الأوّل الأدب القديم، من مطلع الجاهليّة إلى سقوط الدّولة الأمويّة،: 60.

[54] - بطرس البستانيّ: أدباء العرب في الجاهليّة وصدر الإسلام، ص: 22، (الهامش).

[55] - سورة التّكوير، الآية: 08.

[56] - بطرس البستانيّ: أدباء العرب في الجاهليّة وصدر الإسلام، ص: 24.

جعلت الدّم يدعو الدّم، وفرضت على الموتور أن يحرّم على نفسه أحبّ الأشياء إليه كالنّساء والخمر والعسل والطّيب، لا تَحِلُّ له أو يأخذ بثأره)[57].

لم تكن تلك الحروب حروبا تقرّر مصائر القبائل، ولا كانت قادرة على وضع نهاية لوجود قبيلة منها، لقد كانت (غزوات غير منظّمة، يجعلون من أيّامها مادّة لفخرهم وإخزاء أعدائهم. وكثيرا ما كانت تقع من أجل النّهب والسّلب، أو مزاحمة على الماء والكلإ؛ ومنها ما كان يحدث لأسباب تافهة تعظّمها عنجهيّة البدويّ كحرب البسوس التي نشبت لمقتل ناقة، وكان الدّافع إليها الحفاظ على الجوار؛ وحرب داحس والغبراء التي أفضى إليها التّنافس في الرّهان بين سيّدي القبيلتين)[58]، بل كانت فرصة سانحة لتأكيد بطولة الأبطال والفرسان، وكانت بالتّالي موضوعا شعريّا مهمّا في تاريخ الشّعر العربيّ، هو (شعر الحماسة)، الذي يُعدّ بشكل مّا الوجه العربيّ (البدائيّ) للشّعر الملحميّ الذي عرفته كثير من الأمم. وفي المقابل، (قلّما وقعت حرب لدفع عدوّ غريب كحرب ذي قار بين الفرس وبني بكر، وحروب اليمن والأحابش، وإنّما كانت حروبهم في الغالب داخليّة قبليّة، وإذا خرجوا بها عن شبه جزيرتهم فإلى تخوم العراق والشّام ليتقاتلوا في سبيل كسرى وقيصر)[59]، وهذا دليل على أنّ طبيعة الحياة التي كان يحياها العرب قد شغلتهم عمّن سواهم، وجعلتهم يفنون أوقاتهم في صراعات يوميّة بينهم، غير عابئين بما كان يجري حولهم، وحتّى حين تتوسّع أسباب الحرب، وتتعلّق بشكل أو بآخر بالفرس والرّوم، فإنّهم يتحاربون بينهم (في سبيل كسرى وقيصر)!!!.

نماذج من الشّعر الجاهليّ:

والمعلقات الجاهلية كلها تبدأ بالغزل وذكر الديار والأطلال، قال زهير بن أبي سلمى:

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم ... بحومانة الدراج فالمتثلم

ودار لها بالرقمتين كأنها ... مراجيع وشم في نواشر معصم

وقال عنترة بن الشداد في معلقته:

يا دار عبلة بالجواء تكلمي ... وعمي صباحا دار عبلة واسلمي

دار لآنسة غضيض طرفها ... طوع العنان لذيذة المتبسم

حُيِّيْتَ من طلل تقادم عهده ... أقوى وأقفر بعد أم الهيثم

وقال النابغة الذبياني:

نظرت بمقلة شادن متربب ... أحوى أحمّ المقلتين مقلَّدِ

والنظم في سلك يزين نحرها ... ذهب توقد كالشهاب الموقد

صفراء كالسيراء أكمل خلقها ... كالغصن في غلوائه المتأوِّد

---

[57] - بطرس البستانيّ: أدباء العرب في الجاهليّة وصدر الإسلام، ص: 24، 25.

[58] - بطرس البستانيّ: أدباء العرب في الجاهليّة وصدر الإسلام، ص: 24.

[59] - بطرس البستانيّ: أدباء العرب في الجاهليّة وصدر الإسلام، ص: 24.

قامـــــت تـــــراءى بـــــين ســـــجفي كِلَّـــــةٍ كالشـــــمس يـــــوم طلوعهـــــا بالأســـــعد
أو درَّةٍ صَـــــــدَفيَّةٍ غَوَّاصُـــــــها بَهِـــــــجٌ متـــــى يرهـــــا يُهِـــــلُّ ويســـــجد
أو دميـــــــةٍ مـــــن مرمـــــر مرفـــــوعةٍ بُنيـــــتْ بـــــآجرٍّ يُشـــــاد وَقَرْمَـــــد

ولم تشذ عنها إلا معلقة عمرو بن كلثوم التي افتتحها بالحديث عن الخمر:

ألا هبـــــي بصـــــحنك فاصـــــبحينا ولا تبقـــــي خمـــــور الأنـــــدرينا

ولكنه لم يلبث أن عاد إليها فذكر الفراق:

قفـــــي قبـــــل التفـــــرق يـــــا ضعـــــينا نخبـــــرك اليقـــــين وتخبرينـــــا

ومن الشعراء الذين نظروا إلى المرأة هذه النظرة زير النساء مهلهل بن ربيعة، وامرؤ القيس، والنابغة الذبياني. قال امرؤ القيس في حديث فاحش:

ســـموت إليهـــا بعـــد مـــا نـــام أهلهـــا سُـــمُوَّ حَبـــاب المـــاء حـــالا علـــى حـــال

وقال في معلقته:

كـــدأبك مـــن أم الحـــويرث قبلـــها وجارتهـــا أم الربـــاب بمأســـل
إذا قامتـــا تضـــوع المســـك منهـــما نســـيم الصـــبا جـــاءت بريـــا القرنفـــل
ففاضـــت دمـــوع العـــين مـــني صـــبابة * علـــى النحـــر حتـــى بـــل دمعـــي محملـــي
ألا رب يـــوم لـــك منهـــن صـــالح ولا ســـيما يـــوم بـــدارة جلـــجل
ويـــوم عقـــرت للعـــذارى مطيتـــي فيـــا عجبـــا مـــن كورهـــا المتحمـــل
فظـــل العـــذارى يـــرتمين بلحمهـــا وشـــحم كهـــداب الـــدمقس المفتـــل
ويـــوم دخلـــت الخـــدر خـــدر عنيـــزة فقالـــت لـــك الـــويلات إنـــك مرجلـــي
تقـــول وقـــد مـــال بنـــا الغبـــيط بنـــا معـــا عقـــرت بعيـــري يـــا امـــرأ القـــيس فـــانزل

وقال أعشى قيس يصف محبوبته:

كـــأن مشـــيتها مـــن بيـــت جارتـــها مَـــرُّ الســـحابة لا ريـــثٌ ولا عَجَـــلُ
وتســـمعُ للحَلْـــيِ وسواســـا إذا انصـــرفتْ كمـــا اســـتعان بـــريحٍ عِشْـــرَقٌ[60] زَجِـــلُ
يكـــاد يصرعـــها لـــولا تـــشددها إذا تـــقوم إلـــى جـــاراتها الكَسَـــلُ
إذا تقـــوم يضـــوع المســـكُ أصـــورةً[61] والزنبـــقُ الـــوردُ مـــن أردانهـــا شَـــمِلُ
مـــا روضـــةٌ مـــن ريـــاض الحَـــزْنِ معشـــبةٌ خضـــراءُ جـــاد عليهـــا مســـبلٌ هَطِـــلُ
يومًـــا بأطيـــبَ نـــشرَ رائِحـــةٍ ولا بـــأحسنَ منهـــا إذْ دنـــا الأُصُـــلُ[62]

ولم تعرف في الغزل الجاهلي قصيدة غزلية مستقلة بالغزل إلا قصيدة للمرقش الأكبر هي:

ســـرى لـــيلا خيـــالٌ مـــن سُـــلَيْمى فـــأرَّقني، وأصـــحابي هجـــودُ
فبـــت أديـــر أمـــري كـــل حـــال وأرقـــب أهلهـــا وهمـــو بعيـــدُ

---

[60] - العشرق: شجيرة مقدار ذراع لها أكمام فيها حبوب صغيرة إذا جفت فمرت الريح تحرك الحب فتسمع له خشخشة على الحصى.

[61] - أصورة: المسك، وهو مفرد صوار.

[62] - جمع أصيل وهو من العصر إلى الظلام.

ورُبَّ أسـيلةِ الخـدينِ بِكْـرٍ منـعَّمَةٍ لهـا فـرْعٌ وجِيـدُ
وذو أَشَـرٍ شـتيتُ النبـتِ عـذْبٌ نقـيُّ اللـونِ بـرَّاقٌ بَـرُودُ
لهـوتُ بهـا زمانـا مـن شـبابي وزارتْهـا النجائـبُ والقصـيدُ
أُنـاسٌ كلمـا أَخْلَقْـتُ وصـلا عنـاني منهمـو وصـلٌ جديـدُ

قال عروة بن حزام العذري (توفي 30هـ) في عفراء:

ومـا بـيَ مـنْ خَبْـلٍ ولا بـيَ جِنَّـةٌ ولكـنَّ عمّـي يـا أُخَـيَّ كـذوبُ
أقـول لعـراف اليمامـة داونـي فإنـك إن داويـتني لطبيُـبُ
فـوا كبـدًا أمسـتْ رفاتـا كأنـما يُلَذِّعُـها بالموقـدات طبيـبُ
عشـيَّةَ لا عفـراءُ منـك بعيـدةٌ فتسـلو، ولا عفـراءُ منـك قريـبُ
فـوالله لا أنسـاكِ مـا هبـتِ الصَّـبا ومـا عقَّبتهـا فـي الريـاح جَنـوبُ
وإنّـي لتغشـاني لذكـراك هـزّةٌ لهـا بـين جلـدي والعظـام دبيـبُ

وقال علقمة بن عبدة:

طحـا بـك قـلبٌ فـي الحسـان طـروبُ بُعَيـدَ الشـباب عصـرَ حـان مشـيبُ
يُكلِّفنـي ليـلي وقـد شَـطَّ وَلْيُهـا وعـادت عـواد بينـنا وخطـوبُ
مُنَعَّمـةٌ مـا يُسْتطـاعُ كـلامها علـى بابهـا مـن أن تُـزارَ رقيـبُ
إذا غـاب عنهـا البعـلُ لـم تُفـشِ سـرَّه وتُرضـي إيـابَ البعـل حـين يـؤوبُ

لما أراد امرؤ القيس أن ينقل إلينا مشهد السرعة في فرسه صور ذلك المشهد تصويرا، فوقفنا أمام جلمود من الصخر دفعه السيل من أعالي الجبال فراح يمزج الكر بالفر، والإقبال وبالإدبار:

مكـر مفـر مقبـل مـدبر معـا كجلمـود صـخر حطـه السـيل مـن عـل

وحين أراد زهير بن أبي سلمى أن ينقل إلينا معنى الحرب وويلاتها صور رحى تطحن الناس طحنا:

ومـا الحـربُ إلا مـا علمـتم وذقـتمُ ومـا هـو عنهـا بالحـديث المـرجَّمِ[63]
فتعـركم عـرك الرحـى بثفالهـا وتلقـح كشـافا ثـم تُنْـتَجْ فتُتْـئِمِ[64]

قال عنترة بن الأخرس يصف ثعبانا:

لعلَّـكَ تُمنـى مـن أَرَاقـم أرضـنا بـأَرقم يُسـقى السـمَّ مـن كـل مَنْطَـفِ[65]
تـراه بـأجواز الهشـيم كأنمـا علـى متنـه أخـلاقُ بُـرْدٍ مُفَـوَّفِ[66]
كـأن بضـاحي جلـده وسَـرَاته ومجمـع ليتيـه تهاويـل زُخـرفِ[67]

وقال امرؤ القيس في وصف فرسه:

---

[63] - الحديث المرجم: الحديث الذي يتكلم فيه صاحبه بما لا يعلم.

[64] - الثفال: جلد يبسط تحت الرحى ليسقط عليه الدقيق، والباء بمعنى مع.

[65] - الأرقم: أخبث الحيات. المنطف: موضع السم.

[66] - الأجواز: جمع جوز وهو الوسط. الهشيم: اليابس المتكسر. المتن: الظهر. المفوف: المنقوش، أي كأن على ظهره أثوابا بالية منقوشة.

[67] - السراة: الظهر. الليتان: عرقان في جانبي العنق. التهاويل: النقوش. الزخرف: الزينة.

وقـــد أغتـــدي والطيـــرُ فـــي وكناتهـــا بمنجـــردٍ، قيـــدِ الأوابـــدِ، هيكـــلِ[68]
مكـــرٍّ، مفـــرٍّ، مقبـــل مـــدبر معـــا كجلمـــود صـــخر حطـــه الســـيل مـــن عـــلِ[69]
مِسَـــحٍّ إذا مـــا الســـابحاتُ علـــى الـــونى أثـــرنَ الغبـــارَ بالكديـــدِ المـــركَّلا[70]
يـــزلُّ الغـــلامُ الخـــفُّ عـــن صـــهواته ويلـــوي بـــأثواب العنيـــف المثَقَّـــلِ[71]
لـــه أيطـــلا ظبـــي، وســـاقا نعامـــة وإرخـــاءُ ســـرحانٍ، وتقريـــبُ تتفُـــلِ[72]

وقال عنترة بن شداد في معلقته يصف روضةً مشبهًا بها محبوبته:

وكـــأنَّ فـــأْرةَ تـــاجرٍ بقســـيمةٍ ســـبقتْ عوارضُـــها إليـــك مـــن الفـــمِ[73]
أو روضـــةً أُنُفًـــا تضـــمَّنَ نبتهـــا غيـــثٌ قليـــلُ الـــدِّمْنِ لـــيس بمُعْلَـــمِ[74]
جـــادتْ عليـــه كـــلُّ عـــينٍ ثَـــرَّةٍ فتـــركن كـــلَّ قـــرارةٍ كالـــدرهمِ[75]
سَـــحًّا وتَسْـــكابًا، فكـــلُّ عشـــيةٍ يجـــري عليهـــا المـــاءُ لـــم يتصـــرَّمِ[76]
وخـــلا الـــذبابُ بهـــا، فلـــيس ببـــارحٍ غـــردًا كفعـــلِ الشـــاربِ المتـــرنِّمِ[77]
هزجـــا يحـــك ذراعـــه بذراعـــه قَـــدْحَ المُكِـــبِّ علـــى الزنـــادِ الأجْـــذَمِ[78]

وقال الشنفرى يصف قوسه:

إذا زلَّ عنهـــا الســـَّهمُ حنَّـــتْ كأنَّهـــا مُـــرزَّأَةٌ ثكلـــى تَـــرِنُّ وتُعْـــوِلُ

وقال الشمَّاخُ بنُ ضِرار يصف قوسه هو أيضا:

وذاق فأعطتـــه مـــن اللَّـــين جانبًـــا كفـــى وَلَهًـــا أنْ يُغْـــرِقَ السَّـــهمَ حـــاجزُ
إذا أَنْـــبَضَ الرَّامـــون عنهـــا ترنَّمـــتْ تـــرنُّمَ ثكلـــى أوجعتهـــا الجنـــائزُ

---

[68] - الوكنات: أعشاش الطير. المنجرد: الماضي في السير. الأوابد: الوحوش وهو يدركها، فكأنه قيد لها. هيكل: ضخم.

[69] - الجلمود: الحجر الصلب.

[70] - مسحّ: كثير الجري. السابحات: الخيل التي تمد يدها في عدوها. الونى: الضعف. الكديد: الصلب. المركل: الذي يركل مرة بعد مرة.

[71] - يزل: يزلق. الخف: الخفيف. الصهوات: جمع صهوة، وهي مقعد الراكب على ظهر الفرس. يلوي: يرمي. العنيف المثقل: الحاذق الماهر.

[72] - أيطلا ظبي: خصراه. إرخاء سرحان: عدو للذئب يشبه الخبب. والتقريب وضع الرجلين موضع اليدين في العدو. والتتفل: ولد الثعلب.

[73] - الفأرة: أصلها فائرة لشدة ريحها. والقسيمة السوق أو حك المسك أو الساعة التي تقسم الليل والنهار. العوارض: الأسنان التي تبدو عند الضحك.

[74] - الروضة: المكان المطمئن العامر بالنبات والذي فيه الشجر، أو هي الحديقة. والروضة الأنُف: التي لم تُرع بعد. الدِّمن: البعر.

[75] - الثرة: الثرثارة. والقرارة: كل قاع مستدير.

[76] - السح: الصب، وتصرم: انقطع.

[77] - الذباب: المقصود به هنا النحل، الغرد: الطرب. المترنم: الذي يرجع صوته بينه وبين ونفسه.

[78] - الهزج: المتغني. الأجذم: مقطوع اليد أو الأنامل.

المصار والمراجع:

1) القرآن الكريم.
2) أدونيس، الشعرية العربية، دار الآداب، ط 1، 1985، ط 2 1989، بيروت.
3) بطرس البستانيّ: أدباء العرب في الجاهليّة وصدر الإسلام، حياتهم آثارهم نقد آثارهم، دار مارون عبّود، توزيع دار الجيل، بيروت، لبنان.
4) الجاحظ: الحيوان، طبعة الحلبي، ج 1.
5) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء الأول، ط 2، 1993.
6) حسني عبد الجليل يوسف: الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، مؤسّسة المختار للنّشر والتّوزيع، ط 1، القاهرة، 2001.
7) رجاء عيد: بواكير المصطلحات النقدية. قراءة في كتاب طبقات فحول الشعراء. مجلّة فصول، مج 06، ع 02.
8) رجيس بلاشير: تاريخ الأدب العربي العصر الجاهليّ، تع: إبراهيم الكيلاني، دار الفكر، دمشق.
9) سورة الأنعام، **79.**
10) سورة التّكوير، الآية: 08.
11) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، دار المعارف، ط 22.
12) عبد الغنيّ أحمد زيتونيّ: الإنسان في الشّعر الجاهليّ، مركز زايد للتّراث والتّاريخ، ط 1، 2001.
13) علاء حسين الكاتب: مراحل الأدب العربيّ دراسة تاريخيّة، نشر مهدي يار، ط 1، 2001.
14) علي الشعيبي: الإيجابية والسلبية في الشعر العربي بين الجاهلية والإسلام، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب.
15) عماد الصّبّاغ: الأحناف.. دراسة في الفكر الدّينيّ التّوحيديّ في المنطقة العربيّة قبل الإسلام، دار الحصاد للنّشر والتّوزيع، ط 1، دمشق، سوريا، 1998.
16) عمر فرّوخ، تاريخ الأدب العربيّ، الجزء الأوّل الأدب القديم، من مطلع الجاهليّة إلى سقوط الدّولة الأمويّة، دار العلم للملايين، ط 4، بيروت، 1981.
17) محمّد عبد المعيد خان: الأساطير العربيّة قبل الإسلام، مطبعة لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر، القاهرة، 1937.
18) محمّد هاشم عطيّة: الأدب العربيّ وتاريخه في العصر الجاهليّ، مطبعة مصطفى الحلبيّ وأولاده، ط 2، مصر، 1936.
19) https:quran.ksu.edu.sa/tafseer/katheer/sura6-aya79.html.
20) https:www.diwanalarab.com/%D9%85%D8%B9-%D8%B9%D9%84%D9%8A-%D8%A8%D9%86-%D8%A7%D9%84%D8%AC%D9%8E%D9%87%D9%92%D9%85-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%AD%D9%83%D8%A7%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%B7%D8%B1%D9%8A%D9%81%D8%A9